الغذاء الروحى

لجماعة السالكين إلى الله عز وجل

للأستاذ السيد محمد عبد الشافعى

يقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى حكمه « العبارات قوت لعائلة المستمعين وليس لك إلا ما أنت له آكل » . والعبارات جمع عبارة ، وهى : النطق اللسانى المعبر عما انطوت عليه ذوات المرشدين من معارف وحقائق . والقوت : ما يقتات به المرء إن كان حسيا فللجسد . وإن كان معنويا فللروح . وعائلة المستمعين : هى جماعتهم ، وإن شئت قلت : هى جماعة الفقراء السالكين إلى الله عز وجل الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وهذه الجماعة هى أشد الناس حاجة إلى هذا الغذاء الروحى . إذ أنهم لا يهتمون بأجسادهم كما يهتمون بأرواحهم ، وما كانوا فى ذلك الفعل ظالمين لأجسادهم وإنما أخذوا بقول الرسول صلوات الله عليه « حسب بن آدم لقيمات يقمن بها صلبه » وقوله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ولو أن إنساناً أراد سفر إلى بيت الله الحرام وكانت له دابة تحمله ، فظل طول وقته يعلف الدابة ويهيء لها السرج وينظف فى حوافرها حتى فاته وقت الحجيج وهو مشغول بدابته فلا يمكن يحكم عليه أحد بأنه كيس عاقل ، وإنما يكون حكم الكل عليه أنه أحمق . فكذلك المرء من أول يوم ولد فيه على سفر ، ودابته جسده . قال تعالى : (يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) فهو إلى الله واصل ، ولا لقاء له بربه إلا فى يوم يقوم الناس فيه لله رب العالمين . فإن بلغت عنايته بجسده حداً شغله عن ربه ونفسه كان من الذين قال الله فيهم : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) لذلك لم تشغلهم مرتبة الحس بما فيها من ملذات عن معانى القدس وما فيها من عرفان ، تنكشف به كمالات الحق لهم ، وتزداد أرواحهم بها قوة وصفاء ، إذ أن فى ذلك حياتهم ، قال تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقال تعالى : (لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) نعم فليس كل من يدب

على الأرض حيا عند الله ؛ وإنما الحياة حياة الإيمان والمعرفة . ومن جحد وكفر أو أعرض ونأى بجانبه فهو مقبور فى جسده وإن سار أمام أعين الناس على وجه الأرض . قال تعالى لنبيه مبينا (وما أنت بمسمع من فى القبور) فقوت الأرواح من كانت به حياة أشهى واعظم من قوت الحس للذى لا حياة فيه . وكما أننا نجد أن الأطعمة الحسية منها ما ينفع ومنها ما يضر ، وليس ما ينفع منها غذاء لفرد ينفع لفرد آخر إذا كان به علة ، بل نرى أنه قد يشتهى البعض مايشتهيه البعض الآخر وما ذلك إلا لاختلاف الطبائع والأمزجة . وما يترتب على ذلك من علل مع وفرة أنواع فى الطعام أمام الآكلين . فكذلك الأمر تماماً فى أقوات أرواح عائلة المستمعين : يدخل العارف فى بستان المعرفة فيقتطف من كل الثمرات ، ثم يخرجها للطالبين شرابا مختلفا ألوانه فيه غذاء وفيه شفاء . ولا شك أن ما يصلح من المعانى لفرد قد لا يصلح لفرد آخر ، وما يستسيغه فرد قد لا يستسيغه فرد آخر ولا يهضمه ، والأمر فى الكل حق، ولكن العلة فى الاستعداد والقبول . فالمريض يجد المرارة فى الشهد ، والمذكوم لا يشم رائحة . وقد تكون العبارة واحدة ، ثم تنقسم فى السمع إلى صورتين ، بحكم استعداد السامعين . والكل عطاء من الله (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) (وقد علم كل أناس مشربهم) (وكلا نمد هاؤلاء وهاؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) فلا يحصل المرء من المعرفة إلا بقدر استعداده مع كثرة الفضل ، كما لا يأكل صاحب الحس إلا ما يلائم شهوته مع كثرة الطعام هذا من وجه — ومن وجه آخر هو أن فى إطلاقه لفظ العائلة على جماعة المستمعين ما يفيد أنهم أسره واحدة يعولهم رجل واحد ، وذلك الرجل هو مرشدهم إلى طريق الحق ، والذى يقوم بتقديم ما يقتاتون به ، باعتبار أنه عائلهم ، فهو فيهم كما قال صلوات الله عليه فى الحديث المروى لأبى داود والنسائى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ، فهو لهم والد وعلى أبناء الرجل الواحد أن يكونوا إخواناً متحابين فى الله تعالى . ولم لا يكونوا إخواناً متحابين وليس بينهم من حطام الدنيا ما يحملهم على البغضاء ، إذ أنهم تعارفوا فى الله واجتمعوا عليه متآخين فيه أخوة صادقة لا يمكن أن تشوبها شائبة العداء يوم القيامة كما وصفهم الله تعالى ميزاً لهم بقوله (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) يجلسهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة على منابر من نور والخلق فى الحساب ، كما وصفهم الصادق الأمين صلوات الله عليه . ولقد رسم كتاب الله تعالى لهذه الجماعة وما شاكلها أسساً خاصة ، هى بمثابة دستور إلهى يجب على كل منهم الأخذ به بحسب مرتبته وواجباته ،

سواء أكان الفرد بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين إخوانه ، أو بينه وبين الوالد . كما بين أيضاً ما على الوالد من واجبات نحو أبنائه — أما واجب الفرد بينه وبين نفسه — فهو الخشية من الله تعالى فى السر والعلن — وأما واجبه بينه وبين إخوانه : فهو الإيثار المطلق فى حدود ما أحل الله — وأما واجبه مع والده — فهو الطاعة وحفظ الحرمة فى الحضور والغيبة . وأما واجب الوالد نحوهم : فهو الحرص التام على ما فيه سعادتهم وإرضاء ربهم رحمة بهم ورأفة ثم عليه هو واجب آخر نحو نفسه هو : ألا يأمرهم بما لا يفعل ، فإن فى ذلك مقت الله . قال تعالى (أتأمرون الناس بالمعروف وتنسوا أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ثم لا يكون له ما هو قائم به علة إلا وجه الله تعالى ، أخذاً وتحقيقاً بقول الله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله) وعموم ما عليه كامل التحقق بقول الله تعالى لنبيه : باعتباره وارثاً للرسول صلوات الله عليه (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) وهذا هو مجمل ما رسم الله وما يجب أن يؤخذ به فى جماعة السالكين إليه والمتحابين فيه والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ٥